ـ يكفيا هذا.. إنها لمخاطرة أن تعرف صورتها الحقيقية.. مخاطرة باهظة الثمن، فالزم الصمت.. ولا تسكت تلك القيثارة التي تسيل على أنغامها نفسي، فإن الطمع قد يذهب عنك حتى تلك السطور التي كنت تمالها مني..»[57].

ولكن صديقه هذا يقابل تاحراً كبيراً من معارفه ومعه تلك الفتاة، فيستعلم عنها، ويكشف حقيقتها المرة الشعة، فإذا بها امرأة فاسدة الأخلاق، متذلة الذوق، وإذا بمطالعاتها الليلية لم تكن في كتاب أدبي، أو حتى في قصة من قصص «ميشيل ريفاكو» أو «أرسين لوبين»، وإنما كانت في برامج سباق الخيل[58].

ويحسره صديقه بما وقف عليه من حقيقتها فيحاول أن يتظاهر بالهدوء، ويحاهد في أن يجرد سراته من العضب والحزن المر، ولكنه لم يتمالك أن صاح به: «لمادا جئت تقول لي هدا الكلام؟»[59].

واللافت للنظر هنا أن توفيق الحكيم في قصته هده الأخيرة يخشى من اكتشاف حقيقة المرأة، وينزع، عن وعي، إلى الحفاظ على ذلك الحلم الجميل الذي يلهمه. إنه يريد هنا أن يعيش مع شبح المرأة وليس مع المرأة نفسها.

ولعل الحكيم قد رسم في نفسه صورة خاصة للمرأة الواقعية بألوان حيبته وإخفاقه في التجربتين السابقتين في كل من «عصفور من الشرق» و«الرباط المقدس». لعل ثعبان الحقيقة الواقعية قد لسعه وأدمى فؤاده سابقاً فصار يخشى كل حقيقة، ويحسب الحبل ثعباناً.

والذي يؤنسنا إلى هذا أن «عصفور من الشرق» نشرت سنة 1938، كما نشرت «الرباط المقدس» سنة 1944، أما «وجه الحقيقة» فقد نشرت مؤخراً في سنة 1953.

وبعد، فلعلنا قد استطعنا أن نأخذ صورة واضحة عن كيفية إيلام المرأة لتوفيق الحكيم بتحييب ظنه فيها.

أما عن الوسيلة الثانية لتوليد الألم في نفس الفنان، ونقصد بها تعالي المرأة